الحرارة . تفقد الحيوانات الحارة الدم قوة ضبط حرارتها فتصير مثل الحيوانات الباردة الدم اي عوضاً عن ان تكون حرارتها منتظمة وعلى معدل واحد تصير مثل حرارة ما حولها ترتفع او تنخفض بارتفاع هذه الحرارة وانخفاضها ومتى اوقظت رجعت حرارتها حالاً الى حالتها العتادة

المناعة . وجد بعضهم ان الحيوانات المشتية تقاوم الامراض المعدية اشد المقاومة وان مدة الحضانة تطول فيها ووجد آخرون ان بعضها يكون موقى من الامراض المكروبية متى كان مشتياً

الخلاصة ان التشتية سكون بعض الحيوانات سكوناً تاماً تقف فيه اعمال اكثر الاعضاء حتى اقد قال بعضهم ان التنفس يقف وقوفاً تاماً في التشتية الحقيقية لكن هذا القول مشكوك فيه . وهي تتدرج من النوم الطبيعي حيث تقف اعمال بعض الاعضاء الى التشتية الحقيقية حيث تكون ظواهر الحياة في ادنى درجة من الضعف . ويظن ان السبات الذي يقع فيه دراويش الهند كما ذكرنا في مقتطف سبتمبر من هذه السنة نوع من انواع التشتية . والتشتية لازمة لهذه الحيوانات ولولاها لانقرضت عن وجه الارض

الداء والدواء

عضّت هرّة مصابة بداء الكلب رجلاً من معارفنا في احدى جهات الغربية فاتى مستشفى الكلب في هذه العاصمة وعولج فيه بعلاج باستور . فاذكرنا ذلك امراً شاهدناه في صبانا منذ نحو خمسين سنة . ذلك ان رجلاً عقره كلب كلب فاجتمع ذووه حوله يطببون ويزمرون ليلة اليوم الاربعين بعد عقره زاعمين انهم ان استطاعوا ان يبقوه مستيقظاً تلك الليلة لم يصب بداء الكلب . ولا تذكر ما اصاب المعقور ولكن كانت هذه المعالجة شائعة في سورية حينئذٍ ولا يزال الكهول يتذكرونها

والمصاب بالجنون كان يقيد بالقيود ويرسل الى دير بعيد يبقى سجيناً فيه الى ان يشفى او يموت لزعمهم ان الجنون ناتج من سكن الشيطان في جسم الانسان ولذلك سموا الجنون مسكوناً

ومن هذا القبيل كتابة الحجب وتعليق التمائم وشرب بعض المياه واستعمال الزار في هذا القطر فان ذلك كلهُ مبنيٌّ على الاعتقاد ان المرض روح خبيثة تدخل الجسم وتغير اعماله ويمكن اخراجها منهُ بهذه الوسائل . وقد كان هذا الاعتقاد شائعاً في القطر المصري

وكل الاقطار ولم يزل شائعاً في اماكن كثيرة حتى الآن . والذين ابوا ان ينسبوا شيئاً من الافعال لغير الله قالوا انهُ هو الذي يمرض وهو الذي يشفي وانكروا ما نسميه بالعدوى بتاتاً كما ترى في تفسيرهم الحديث القائل لا يورد ممرض على مُصِحّ فقد قالوا انهُ « لا يجوز بتي الابل المراض مع الابل الصحاح لان الصحاح ربما مَرِضَ لها مرض فدخل في نفس صاحبها ان ذلك من قبيل العدوى وقد يحتمل ان يكون ذلك من قبل الماء والمرعى تستوبله الماشية فتمرض فاذا شاركها في ذلك غيرها اصابهُ مثل ذلك الداء فكانوا يجهلهم بستوبلهُ عدوى وانما هو فعل الله تعالى » وهو قول ابن منظور في كتاب اللغة المشهور المعروف بلسان العرب . وغريب من هذا الرجل ان يثبت وجود الوبالة التي توجب المرض في الماء والمرعى و يصعب عليهِ التصديق بوجود العدوى كأن الله لا يستطيع ان يمرض الحيوان بواسطة العدوى كما يستطيع ان يمرضهُ بالماء والمرعى

وما يفعلهُ الناس في هذا القطر من استخدامهم الزار لشفاء الامراض او لاخراج الشيخ بين المريض يفعلهُ المتوحشون في كل مكان فالطبيب او الكاهن عندهم يلبس اغرب الملابس واقبحها و يدّعي انهُ يخرج المرض من المريض بالتقبيح والتنمنة والتعزيم ولهم في ذلك اساليب شتّى يضيق المقام عن وصفها

ولكن قام اناس في كل زمان لم تقنعهم هذه الاوهام فنقشوا عن علل الامراض وحاولوا ارجاع المسببات الى اسبابها الحقيقية فاصابوا في امور واخطأوا في اخرى وقالوا ان المرض خلل في بدن الانسان تتقدمهُ اسباب تحدثهُ وتتبعهُ اعراض تنتج عنهُ وقد فصّل ذلك ابن سينا في قانونهِ قال

« السبب في الطب هو ما يكون اولاً فيجب عنهُ وجود حالة من حالات بدن الانسان او ثباتها

« والمرض هيئة غير طبيعية في بدن الانسان تحدث بالذات آفة في الفعل وجوباً اولياً وذلك اما مزاج غير طبيعي واما تركيب غير طبيعي

« والعَرَض هو الشيء الذي يتبع هذه الهيئة وهو غير طبيعي سواء كان مضاداً للطبيعي مثل الوجع في التولنج او غير مضاد مثل إفراز حمرة الخد في ذات الرئة

« مثال السبب المعفونة ومثال المرض الحمّى ومثال العَرَض العطش والصداع

« وايضاً مثال السبب امتلاء في الاوعية المحدرة الى العين ومثال المرَض السدة العينية وهو مرض آلي تركيبي ومثال العرض فقدان الابصار

« وايضاً مثال السبب نزلة حادة ومثال المرض قرحة في الرئة ومثال العرض حمرة الوجنتين وانجذاب الاظفار

« والعرض يسمّى عرَضاً باعتبار ذاته او بنسبته الى المعروض له ويسمّى دليلاً باعتبار مطالعة الطبيب اياهُ وسلوكه منهُ الى معرفة ماهية المرض . وقد يصير المرض سبباً لمرض آخر كالتولنج للتشنج او للغالج او للصرع بل قد يصير العرض سبباً للمرض كالوجع الشديد يصير سبباً للورم لانصباب المواد الى موضع الوجع . ويصير العرض بنفسهِ مرضاً . وقد يكون الشيء بالقياس الى نفسهِ والى شيء قبلهُ والى شيء بعدهُ مَرَضاً وعَرَضاً وسبباً مثل الحمّى المسلّة فانها عرض لقرحة الرئة ومرض في نفسها وسبب لضعف المعدة مثلاً . ومثل الصداع الحادث عن الحمى اذا استحكم فانهُ عَرَض الحمّى ومَرَض في نفسهِ ور بما جلب البرسام او السرسام فصار ذلك سبباً للمرضين »

ثم قال « ان احوال بدن الانسان عند جالينوس ثلث الصحة وهي هيئة يكون بها بدن الانسان في مزاجهِ وتركيبهِ بحيث يصدر عنهُ الافعال كلها صحيحة سليمة . والمرض هيئة في بدن الانسان مضادة لهذه . وعندهُ حالة ليست بصحة ولا بمرض لعدم الصحة في الغاية والمرض في الغاية كابدان الشيوخ والناقهين والاطفال او لاجتماع الامرين في وقت واحد »

وتاريخ الطب منذ ستة آلاف سنة الى الآن كناية عن حدس واستنتاج وبحث واستقراء وتجارب متوالية الى ان وصل علم الطب الى ما يُظن انهُ القول الفصل في حقيقة الداء والدواء . وسواء كان ذلك او لم يكن فما بلغهُ علم الطب الآن يصحّ الاعتماد عليهِ الى ان يكشف ما هو أوجه منهُ واثبت . وايضاحاً لذلك نقول معتمدين على ما ذكرهُ حديثاً الدكتور جمس فردرك رجرس من اساتذة جامعة يايل باميركا

ان الامور التي رأى الناس ان لها علاقة شديدة بالمرض مثل الافراط والتعرّض للحر والبرد قالوا من قديم الزمان انها من اسباب الامراض وكذلك قالوا ان السكن في الاماكن الوبلة بين المستنقعات يسبب الحميات ولكن بقيت امراض كثيرة كالسل وذات الرئة لم يعرفوا سببها الحقيقي الاّ بعد ما كشفت الميكروبات التي تسبب هذه الامراض . وقد صرنا نعرف الآن اسباب اكثر الامراض كالسل والكلب والتيفوئيد وذات الرئة والحميات على انواعها ولكن ما هو المرض نفسهُ اي ما هو السل وما هي الحمى وما فصل الدواء فيهما ولماذا ينتشر الوباء فيصاب بهِ البعض ولا يصاب البعض الآخر مع انهم يكونون كلهم معرّضين لميكروبهِ على حدٍ سوى . ولماذا يمرض بعض الناس فيشفون ويمرض البعض الآخر فلا

يشفون ولو عولجوا كلهم على اسلوب واحد معالجة واحدة . فما هو المرض اذاً

والجواب ان المرض شعور داخلي يراد به حفظ الحياة بتخليص الجسم من مواد ضارة توجد فيه وهاك تفصيل ذلك

نشعر احياناً شعوراً غير عادي في اجسامنا فنستنتج اننا مرضى اي ان اجسامنا انحرفت عن مجراها الطبيعي او عن حالتها الصحية فان في داخلنا قوة مدركة لا نشعر بها وهذه القوة او هذا العقل الباطن او هذا المدبّر يفعل فعلهُ دواماً في اليقظة وفي المنام بل يفعل فعلهُ قبلما تظهر فينا قوى العقل الظاهر فيراقب وظائف اعضاء الجسد التي تتألف الحياة من مجموعها ويدير اعمالها المختلفة على غاية الدقّة والسداد فاذا دخل الجسم عدوٌّ ما قام هذا المدبر عليهِ وعمل اعمالاً غير عادية لتخليص الجسم منهُ فنشعر بهذه الاعمال لانها انحراف عن المجرى الطبيعي ونسميها مرضاً او انحرافاً . وعليهِ فالمرض هو محاولة الجسم ان يتخلّص ممّا يجدهُ ضارّاً لهُ او موجباً لملاكهِ مسترشداً بهذا العقل الداخلي . فاذا جاشت النفس وقذفت المعدة ما فيها من الطعام بالقيء فالمرء لا يفعل ذلك برضاهُ بل يتألم منهُ ويودّ عقلهُ الظاهر ان يبطل القيء ولكن عقلهُ الباطن الذي يدبّر جسمهُ يقول غير ذلك فانهُ يعلم ان في المعدة طعاماً مؤذياً فيحملها تدفعهُ رغماً عن ارادة الانسان . وكذلك اذا دخلت الميكروبات جسم انسان فان عقلهُ الظاهر لا يشعر بها ولا يعلم بدخولها ولكن عقلهُ الباطن يشعر بها حالاً فيطلق عليها جيشاً من اخلايا البيضاء التي في الدم او نحوها لتقتلها وتزيل فعل سمها . ويظهر فعل ذلك لدى العقل الظاهر او لدى الشعور الظاهر ولدى من يرى ذلك الانسان بارتفاع درجة الحرارة اي بالحمى وسرعة النبض والتنفس . فان آلات الجسم تزيد حركةً وهمةً لتكوين المواد التي تُهلك الميكروبات باسرع ما يكون فتزيد الحرارة وتزيد سرعة النبض والتنفس بزيادة هذه الحركة . ويختلف ما يسمى باسباب الامراض وعلاماتها او هذه الامور الظاهرة الناتجة عن الافعال الباطنة باختلاف نوع الميكروبات وكميتها . اي يختلف فعل الجسم حينئذٍ باختلاف الميكروبات فيكون لكل نوع منها علامات تدلُّ عليهِ

فالمرض بهذا المعنى اي قتال الجسم لليكروبات يسير سيرهُ مهما كان العلاج . وغاية ما يفعلهُ العلاج انهُ يقصّر هذا السير او يقلل تعب الجسم في هذا القتال لانهُ يساعدهُ على اليكروبات . فاذا كانت اليكروبات كثيرة او اذا كانت شديدة الفتك او اذا كانت قوى الجسم غير كافية لابداء المقاومة اللازمة دارت الدائرة على الجسم مهما كان الطبيب ماهراً في المعالجة . واذا كانت اليكروبات قليلة وقوى الجسم شديدة شفي المريض ولو لم يعالج او

لو عوض اخف معالجة . ومن ثم يتضح كيف ان اطباء المتوحشين والذين يدّعون العجائب يشفون بعض الامراض و يفعلون ما يحسب من الخوارق

ثم ان بعض الامراض يصيب الجسم مرةً واحدة وقلّما يتكرّر كالجدري والحصبة . وسبب ذلك ان الجسم الذي يقاوم المرض و يتغلب عليه يحفظ الجنود التي قاومهُ بها فترصد لميكروبات ذلك المرض وتتغلب عليها كلما دخلت الجسم نعني كالجنود المرابطة في الثغور

واذا انتشر وباء في بلاد سلم منهُ كثيرون من الذين يتعرّضون له مع ان ميكروباته تدخل اجسامهم كما تدخل اجسام غيرهم وسبب ذلك ان قوة الدفاع فيهم تكون قوية جدًّا فلا تضطر اجسامهم ان تهيج لاخراج المقاتلة تهيجاً شديداً يسبب علامات المرض الظاهرة

وقد تمكّن علماء الطب في هذا العصر من استنباط وسيلة بديعة لمقاومة الميكروبات وهي انهم اوجدوا في اجسام بعض الحيوانات مواد تشبه المواد التي يصنعها جسم الانسان ويحارب بها ميكروبات الامراض فاذا لُقح جسم بهذه المواد وقتهُ من تمكّن الميكروبات منهُ وساعدتهُ على محاربتها والتغلّب عليها . ولم يتمكن العلماء حتى الآن من ايجاد مواد مقاومة لكل الميكروبات كما اوجدوا مواد مقاومة لبعضها

واكثر الامراض المعدية قصير المدة فيفوز الجسم في محاربتها او يفشل في اسبوع او اسبوعين الى خمسة او ستة . ولكن قد تطول الحرب في بعض الامراض اشهراً بل سنين كثيرة كما في السل . وتختلف نتائجها حينئذٍ حسب اختلاف قوى الجسم ومقدار ما يبذل منها في اساليب أخرى . وسواء طالت الحرب او قصرت وسواء كانت مزمنة او حادة فموادي الادواء تبقي في الجسم جروحاً في شكل اعضاء موقوفة وعللاً تمنعهُ من ان يقوم باعماله كما كان يقوم بها قبلاً وتترك ايضاً اثرها في العقل فيصير الانسان يشعر انهُ اضعف مما كان واقل راحةً

وقد يكون للمرض اسباب اخرى غير الميكروبات . فان الجسم قادر في حالته الطبيعية على التخلص من الفضول التي تتكوّن فيهِ عادة من اندثار اعضائهِ المختلفة اي من الرماد والدخان الناتجين من احتراق دقائقهِ في اعمالهِ اليومية ولكن الافراط في الطعام والشراب يشغل اعضاء الجسم شغلاً فوق شغلها المطلوب منها فاذا تكرّر ذلك عليها رزحت من التعب ولم تعد قادرة على التخلص من الفضول . ومن هذا القبيل الافراط في العمل والتعرّض للحر الشديد والبرد الشديد ونحو ذلك من العوارض التي تضطر الشعور الباطن الى جعل الجسم يوفّق نفسهُ للاحوال الجديدة التي طرأت عليهِ فيتحمل المضيم و يبذل جهدهُ لكي يلبس في هذا التوفيق لكل حالة لبوسها ونتيجة ذلك الشعور بانحراف الصحة

فالمرض والحالة هذه حرب يشبّها الجسم وتديرها قوة عقلية فيه على غير معرفة صاحبه المرض منها التخلص من المواد الضارة التي توجد فيه او التعويض على الاعضاء التي ايفت او أُنهكت . فهو يتلو الصحة في فائدته للجسم لانهُ اسلوب الطبيعة لردّ الجسم الى حالة الانتظام التي تدعوها صحّة ويزيد على ذلك في انهُ يبقي في الجسم احياناً مواد نقيه من الاعداء التي اضرّت به قبلاً

يرى القارئ مما تقدم كيف تشفى بعض الامراض ولو كان الطبيب جاهلاً يعالج بوسائط لا تؤثر لذاتها في سبب المرض . فان اعتقاد المريض بالطبيب يقوي فيه الحركة الباطنة التي يتحركها جسمهُ لمقاومة اسباب المرض لان كل ما يؤثر في العقل يؤثر في الجسم ايضاً لشدة الارتباط بينهما . وتاريخ الطب مشحون بالحوادث التي حصل فيها الشفاء بواسطة تأثير عقل الانسان في جسده سواء انتبه لذلك او لم يتنبه لهُ

والعقل الظاهر او العقل المدرك مرتبط بالجسد ارتباطاً تماماً ان لم يكن من جملة وظائف الجسد فيتأثر بما يؤثر فيه صحّة كان او مرضاً . وهو لا يستطيع ان يدير القوى التي تقاوم ميكروبات الامراض ونحوها من عوادي الادواء بعد ان تكون قد دخلت الجسم ولكن افعالهُ من رجاء ويأس تقوّي جنود الدفاع او تضعفها لان العضو الذي يعمل العقل بواسطته مرتبط بكل اعضاء الجسم فيؤثر في الهضم والدورة الدموية وسائر الوظائف

وكما يؤثر العقل في الجسد يتأثر من الاحوال التي يكون الجسد فيها . فاذا ايفت الاعضاء واختلّ عملها استولى الهم على العقل وشعر بضيق وكآبة . ويقلّ هذا الشعور او ينسى او يزول بالوسائل العقلية مثل توجيه الانتباه الى امور أُخرى . فلا شبهة اذاً في ان العقل يؤثر في المرض كثيراً او قليلاً وقد يتوقف عليه فوز الجسم او فشلهُ في مقاومة عوادي الامراض ولكن لا يستنتج من ذلك انهُ هو الشافي اي انهُ هو الذي يقاوم اسباب المرض ويتغلب عليها او انهُ يقدر ان يتغلب عليها اذا لم يكن في الجسم قوة كافية لمقاومتها . ومهما كان العقل مقتنعاً بالشفاء وواثقاً به لا يرجى منهُ ان يشفي رئة مرضوضة او يرد عضواً مفقوداً

فاذا كان المرض عملاً يعملهُ الجسم ليعود به الى حالته الطبيعية بواسطة التخلص من العوامل التي تعمل على هلاكه وجب ان يوجّه العلاج الى مساعدته على نيل هذه الغاية وذلك باراحة القوى العقلية والجسدية وبالتغذية المناسبة وبالعقاقير والترياقيّات[1] التي تساعد اعضاء الجسم على التخلص من اسباب الامراض . والوقاية خير من العلاج وهي تكون

(١) جمع ترياق ترياد يوما يسمى بالانجليزية Antitoxin

بالاعتدال في المأكل والمشرب وبالنظافة وتنقُّس الهواء النقي وما اشبه من الوسائل التي تبقي الجسم قادراً على القيام بما يطلب منهُ . واخيراً يجب ان يدرَّب العقل على قلة التعرُّض لاعمال الجسم ما دام الجسم متبعاً قوانين الصحة ويجب ان يدرَّب المرء على مقابلة نوائب الزمان بصدر رحب حتى لا تأتي صحتهُ بالهموم والغموم

وحفظ العقل سليماً من الاوهام الضارة اسهل سبيلاً من ازالتها منهُ بعد تسأطها عليهِ كما ان منع الميكروبات من دخول الجسم اقل كلفةً من محاربتها والتغلُّب عليها بعد دخولها واسلم منهما عاقبةً . فعلى الذين يتولون اصلاح النفوس ان يكون هذا غرضهم الاول . واذا اتفق اطباء الارواح واطباء الاجسام على وقاية الناس مما يضرهم جسداً وعقلاً صلح حال هذا المجتمع وقلَّت منهُ الاوصاب والآلام

رحلة بارتيما الى الحجاز واليمن والهند

بارتيما رحَّالة ايطالي من اعيان مدينة رومية وقيل من غيرها جاء الى مصر سنة ١٥٠٠ ثم انتقل الى الشام وانتظم في سلك المماليك ودعي نفسهُ يونس وسار من دمشق الى مكة مع الركب الشامي في سنة ٩٠٣ (١٥٠٣ مجرية) وهو اول اوربي دخل مكة في ما يعلم ثم ارتحل من مكة الى اليمن والهند وبلاد فارس ووصف ما لقيهُ في رحلتهِ من الغرائب فرأينا ان نلخصها في ما يلي وقد علقنا عليها حواشي بعضها لبادجر وشفر وبعضها لنا . قال المؤلف

طالما نزعت نفسي الى السفر لتتفرج على البلاد التي لم تطأها قدم احد من الافرنج قبلي فركبت سفينة اوصلتني الى الاسكندرية فاقمت فيها اياماً ثم ارتحلت منها الى القاهرة فمصر المماليك وعاصمة سلطنتهم . ولا اطيل الكلام على غنى هذه المدينة وبهائها فكل ذلك معروف لدى مواطني

وقد اقمت في القاهرة زمناً وارتحلت منها الى الشام بحراً فنزلت بيروت . وهي مدينة وافرة الخيرات سكانها مسلمون وحولها سور تتحطم عليهِ الامواج لكنهُ لا يكتنف المدينة من كل جهاتها بل من الغرب وعلى شاطىء البحر فقط[1] . ولم ارَ في المدينة ما يستحق الذكر الاَّ بناء متهدماً قيل ان ابنة الملك كانت مقيمة فيهِ لمَّا اراد التنين ان يفترسها فجاء مار جرجس وقتلهُ[2]

(١) ربما كان السور متهدماً من جهة البرّ ورممهُ الامير فخر الدين الثاني في اوائل القرن السابع عشر

(٢) هو مقام الخضر ولا يزال قائماً في الجانب الشرقي من المدينة وقد كان قبلاً كنيسة تعرف بكنيسة مار جرجس يبت في المكان الذي قيل انهُ قتل التنين فيهِ وانقذ ابنة الملك ولا يزال الناس هناك يروون هذه الحكاية